كان يرى من واجبه من حيث هو معلم أن يشرح هذا كله وهو يكتب فى صحف سيارة . كان مشغولاً بداهة بأن يجتذب الجمهور إلى عالمه لا أن يهبط هو إلى الجمهور . وكان يرى أن علاقة الكاتب بالمخاطبين من أهم شئون البحث فى نشاط اللغة ؛ لأن اللغة أولاً رسالة تنوير .

وعلى هذا النحو لم يتخل العقاد فى نظرنا عن الاهتمام باللغة ، وكيف يسيغ عاقل أن يتجاهل العقاد الشاعر هذا المجال ؟ ولكن غير قليل من النقاد يلذ لهم أن يتهموا كذلك شعر العقاد . واتهام شعر العقاد دون احتراز أكثر الأشياء دلالة على الفرق الشاسع بين رؤية العقاد للغة ورؤية جمهور واسع من الخاصة والعامة .

لا محالة كان هذا الموضوع الأخير حساساً . ولو قد تعمقناه لاضطررنا إلى مواقف من الخصام قد يضل فيها الرأى المستنير أو الحكم الموضوعى . لكن لا أستطيع إلا أن أقول فى شىء من الثقة غير قليل إن فهم العقاد لنشاط اللغة كان شيئاً مختلفاً اختلافاً أساسياً عن فهم الذين تمتعوا بخصومة العقاد . إن الشعر يصنع من كلمات . هذا كلام له خبىء عنى به العقاد . لقد بذل العقاد جهداً خصباً فى تمحيص ما يشوب هذه العبارة من خلط فى الأذهان . راح العقاد يقول إن الكلمات ليست ذات سلطان مطلق . وقد أوذى العقاد كثيراً حين رأى الخصام غير المحدود بين الكلمات والأفكار فى عقول كثيرين . كتب العقاد شعراً لا يشتبه بشعر آخر ولا يغنى عنه شعر آخر . ولكن خصومة شعر العقاد تعنى فى منطق العقاد الباحث نفسه أن البيئة الأدبية منشقة على نفسها ، وأن هناك تفاوتاً بشعاً فى إدراك ما يسميه العقاد باسم القشور واسم الطلاء واسم الفتنة باللغة التى لعبت بعقول كثير من القراء الذين قرءوا غير الشعر العربى . كان العقاد فريداً فى هذه الثورة الضخمة التى ماتزال محتاجة إلى مزيد من المراجعة . إن دروس العقاد فى اللغة واستعمالها الشاعرى لم تستوعب استيعاباً كافياً . لقد استعمل فى النقاش بعض المصطلحات الرديئة ، وخيل إلى الذين خاصموا العقاد شاعراً وباحثاً أن شئون اللغة تتمتع بكهنوت قابع حتى فى أذهان المتفرنجين القادمين إلى البيئة الأدبية بشىء من قراءات غربية لم تتعمق الأذهان . ومسألة القراءة التى لا تتعمق الأذهان أقلقت أيضا عقل العقاد . لاشك كان هناك تشقق فى عقول بعض هؤلاء ؛ يقرءون نتاجاً مختلفاً عن النتاج العربى من بعض الوجوه ، ولكن هذا لا يعصم فى رأى العقاد الناس من الخلط والعودة إلى السلطان غير المحدود للألفاظ . على هذا النحو لا يشبه العقاد أو لا يناقسه فيما نرى باحث آخر .